

الباب الخامس

قاموس السياسة

مقدمة :

هذا كتاب ينهج فيه برنارد شو منهجاً جديداً . فلا يطرق باب المزاح أو السخرية أو التهمك كماداته ، وإن كان الكتاب لا يخلو منها إذا دعت الضرورة القصوى إلى ذلك ، بل يجمع بين دفتيه خلاصة تجاربه وعصارة أفكاره . كتاب يهدم المساوىء التي تقدر بها الإنسانية في عصرنا هذا ، ويبني من جديد عالماً فاضلاً مهذباً .

وهو والحق يقال : كتاب يجمع تجارب حكيم بلغ من الحكمة والرشاد شأواً بعيداً أهله لكي يخرج على الناس بهذا السفر الجليل . . بمواهبه التي لم يبلغها إنسان في العصر الحديث .

بعد سبعين عاماً كاملاً ، قضاهما برنارد شو في كفاح مستميت بحثاً عن ألوان المعرفة ، يخرج علينا بهذا الكتاب ، فيزيج الستار عن جواهر تجاربه وقوة أفكاره يجمعها كلها في كتاب فريد ، ويقدمه لي ولك هدى وارشاداً للعالمين .

يقول برنارد شو : هناك عوامل خمسة تؤخر من التقدم ، ونسعى بالإنسان إلى فشل محقق . . بها يضل المجتمع سواء السبيل ، ويتخبط خبط عشواء حتى يشرف على الهلاك . . فإن لم يتدارك الإنسان أخطائه الخمسة ويعمل لها كل حساب ، وهي أن يتمشى مع روح العصر ، ويتخلص بما يحوطه من خرافات وأساطير وخزعبلات عفا عليها الدهر ، واستسلم لها الإنسان استسلام الضعيف الواهن ، فلا أمل يرجى من إصلاحه ، ولا فائدة ترجى من إطالة الكتابة فيها ، وتحمل الالم في سبيل شرحها وعرضها لي ولك . .

بل إن المدينيات الراهنة ، سوف تتحطم اشلاء ، وتذهب كغيرها من حضارات ومدنيات التاريخ التي طمست معالمها وذهبت هباء مشوراً على تآثر الأيام وتبعثر السنين .

هذه العوامل الخمسة هي أيضا أسس نجاح المجتمع ، إن أراد بها خيرا ، وسار بها ناحية الكمال المطلق ، ولم يتجه بها في طريق الرذيلة أو الفساد .

يدهشك أن تعرف هذه العوامل ، التي بدونها يفشل المجتمع الحديث ، وبها أيضا يفشل المجتمع الحديث فشلا ذريعا ، هي ليست جديدة عليك ، ولكنها معروفة لك منذ عهد طويل ، فلا غضاضة من ذكرها وهي : الاقتصاد والسياسة والعلوم والتعليم والدين ١١

والعلاج الذي يقدمه برنارد شو للمجتمع العصري الحديث هو برنامج واسع المدى ، من ناحيتي التعليم الفني والإجباري ، ومن ناحيتي التعليم التطوعي والتخصصي .

وبجانب ما يبديه برنارد شو من آراء طيبة وصائبة في السياسة ، تتجلى لك روحه الفلسفية الصرفة ، يظهر لك فيها كعدو لدود ، للتطعيم الإجباري ، وشو المناهض ، للتشريح ، وشو والنبات ، وشو المعضد ، لمذهب الاوثانيسيا - أي الموت الطبيعي ، وشو العامل على هدم وإلغاء السجون ، الخ .

يعالج هذا السفر الجليل موضوعات خطيرة اخترنا بعضها لأنها تهم الرأي العام الشرقي في الوقت الحاضر ، وسنتمه إلى مائتي عام من اليوم على أقل تقدير ١١

وهذه الموضوعات هي : (١) سياسة التعليم وخطر المدارس (٢) الرجل المتعلم ونصف المتعلم والمتعلم الفاسد (٣) الرجل الاقتصادي وأخيراً (٤) نظام الأحزاب في بريطانيا .

ومما لا شك فيه أنه سيكون لهذه الأبحاث أثر بعيد في نفسية القارئ ، وذلك لأنها موضوعات جديدة وطريقة يعالجها عالم فيلسوف بطريقة تخالف كل من

سبقوه من علماء وفلاسفة في تحليلهم لدقائق هذه الموضوعات للوقوف على جواهرها النادرة التي يستخرجونها هادة من الأعماق ، ولا يتشبثون بالمظاهر أو بالتشور .

أولا- سياسة التعليم وخطر المدارس

مخبر :

كان لنظريات العالم النفساني فرويد عام ١٩١٠ - أى اول ما ظهرت - شأن كبير وتأثير واسع المدى على نظم التعليم المعاصرة . واضحت للنظم القديمة ممددة بالزوال أمام اكتشافات فرويد الحديثة ، وآرائه في تعليم الطفل . واسكن برناردشو كان عنيذا حتى أنه لم يتأثر مطلقا بفرويد أو بنظرياته ، وذلك لأن آراءه الخاصة في التعليم كانت جوهرية في ذاتها ، أى أدق وأبعد أثرا من آراء فرويد .

وإذا حاولنا أن نستعرض حالة التعليم في عام ١٩١٠ عند الانجليز مثلا لوجدنا أن الطالب المبتدئ كان يدرس بعض المواد الاكاديمية ، واللغات الاوربية كال يونانية إجباريا . وكان برنارد شو وقتها في أوج عظمته ، وذبوع شهرته . لايفتا يقول : لا يعرف إنسان إلى أى طريق أطفالنا مسوقون . لجميع الطرق الحالية تؤدي كلها إلى مساوىء الحضارة القائمة ؛ أوه الجهاض الدقء هو ذلك الذى يحاول أن يظهر شخصية الطفل ثم يطمس معالمها ؛ وغير ذلك من صرخات عديدة أرسلها شو منذ أربعين عاما . ولاشك أنها كادت تقتلع جذور المدارس ، وسببت لها من القلاقل ما تسببه الزلازل للأرض ..

ومن أشهر أقواله في هذا الصدد ، موجهها الحديث إلى رجال التعليم : كفاكم أيها البلهاء تعليم اللغة اليونانية ، وتدريسها الإجبارى والنحو والصرف وما اليهما ، وحاولوا أن تفهموا أن التعليم هو الحياة . وليس الدرس والجلوس إلى مقاعد خشبية لا تنفى ولا تسمن من جوع . فللاطفال الحق كل الحق فى أن يصير إلى مايصبو اليه طوعا واختيارا . وليس للمدرسة أن تتحكم فى مصيره وتحويله إلى ناحية مخالفة لطبعه وهواه . فإذا كان بطمع فى أن يكون مصارعا فليتركه أبواه يشق طريقه نحو



جورج برنارد شو

فی مسٹہل حیاتہ ۱۸۷۹

فی بدہ رجولتہ ۱۹۰۵

هدفه من غير أن يحول دون إرادته وإن منعه أبوه أو أخوه أو تدخلت أمه أو أخته في تحويل دفته إلى ناحية أخرى ، فقد تولد فيه ناحية كراهية لكل منهم ، وهو محق فيما يذهب إليه !

وعد رجال التعليم هذه الأقوال ضلالا مبينا ، فقد احتقر شو المدارس ونفى نظامها ، ومن ثم سارت أقواله مباشرة إلى طريق الحياة المفتوح على مصراعيه . ولم يأل برنارد شو جهدا في مهاجمة رجال التعليم . وغدا يصرح بآرائه وحكمته متكهنا بما قد يتمخض عنه المستقبل تماما كما فعل شكسبير في روايته المشهورة هاملت ، حيث حلل د مركب أوديب ، بقرون قبل أن يحلله فرويد ! ولكن أنى للناس أن يسمعوا له . لأنهم لو كانوا فعلوا لاغلت المدارس أبوابها إلى غير رجعة منه أمد بعيد .

وعكس برنارد شو ، فيما ذهب إليه من اقتراحات ، صورا من أيام طفولته . وكيف أن المدرسة لم تؤثر في تفكيره أو تعمل على تهذيب نفسه وإصلاحها . وما كاد يتخذ من نفسه مثلا ، حتى انبرى له جهاذة رجال التعليم ، وراحوا يصبون عليه جام غضبهم ويرمون به بأنه يخاف الأطفال ، ويتخذون مما قاله عنهم في إحدى مقدماته دليلا قاطعا على آرائه العرجاء ، ويدكرونه بأنه صاحب القول المشهور : الطفل هو ذلك الحيوان الصغير ، الدائم الجلبة ، ذو القابلية الشرهة للمعرفة والمثابرة الجذونية على إلقاء السؤال تلو السؤال ...

وفي رأيي ، وقد انفردت بدراسة برنارد شو سنين طويلة ، أن الرجل كاتب مجيد ، وناقد نافذ البصيرة في كل ما كتبه عن سياسة التعليم . وذلك لأنه كثيرا ما كان يلقي السؤال تلو السؤال في موضوع التعليم الحساس ، وكان لا يحظ برد مقنع أو برهان دامغ من رجال التعليم الذين تهجموا عليه . بل كل ما كان يحصل عليه كذب ومراء من جانب أصحاب المدارس ورجال التعليم خوفا منهم على بضاعتهم من الكساد .

ومن طريف ما يذكر أن أوينيل ، المربي الانجليزي المعروف ، وصاحب الفضل الأكبر في إصلاح برامج التعليم الانجليزي الحديثة انبرى له يقول : إن الطفل الحديث

يامستر شو لا يكثر من السؤال ، لأنه إن سأل مثلاً عن أصل مولده ، وكيف جاء عن طريق أبويه ، عددنا ذلك ، مشكلة ، يجب أن نعمل لها كل حساب ، ومن ثم لجأنا إلى تطبيق نظريات علم النفس التي لا تعرف أنها عنها شيئاً ،

كتب برنارد شو عام ١٩١٠ يقول بأن الأطفال يجب أن يدرسوا بعض تعاليم الدين . وهو ذلك الملمح الذي رماه الناس بالإلحاد ، ووقف القاريء على نص نظريته المشهورة في ستين صفحة من هذا الكتاب ، ولما استكمل وعيه كتب في عام ١٩٤٤ يقول : يجب على الطفل أن يدرس الدين ! ،

وفي معظم مقدماته كان يقول : على الطفل أن يتعلم كيف يجلس هادئاً متزناً .. ، زد على ذلك ما كان يقوله : على الدولة أن تكذب على الأطفال لتحفظ توازنهم ، وهذه الأكاذيب يجب أن تختلف بنسبة أعمارهم .. ،

ويفقد برنارد شو ثقته في الطفل : لأن حياة الطفل يجب أن تكون منظمة إلى درجة بعيدة ، وفي جميع أدوارها ، لأن هناك أشياء يجب أن يعرفها ويتعلمها النشء . فالرأى العام بعيد كل البعد أو غير موجود في دائرة الطفل ، لذلك يحتاج إلى تضييق لا إلى إطلاق حرية .. ،

ويقول أيضاً : يجب أن يتعلم الطفل كيف يعيش عن سعة ، لا أن يكون تحت رحمة الاشغال الشاقة !! ،

وهذا القول الأخير لا يقوله أويترع اليه عالم نفساني ، بل يقوله كل فيلسوف . لذلك ترى معي أن برنارد شو ليس عالماً نفسانياً بل فيلسوفاً . وهو عندما يتحدث عن الأطفال لا ترشده فلسفته ، ذلك لأن تربية النشء تعتمد على علم النفس في جل أمرها . فسيكولوجية الطفل هي أن تكون للطفل شخصية خالصة من الخوف والشر إذا أمكن . وعلماء النفس اليوم يقيسون السعادة أو الشقاء بما يرتسم على وجوه تلاميذ المدارس ، وما ينعكس عليهم من آيات الفرح أو الجزع ، وهنا لابد أن أعيد قول برنارد شو : الشخص المشغول البال ليس سعيداً أو شقيماً ، ولكنه مجرد إنسان يتنفس ليعيش ،

يستشهد «اونيل» بأن برنارد شو أخطأ خطأ كبيراً ، لأنه تفاخى عن معالجة

مشاكل النشء ، ويلومه لأنه كان يقول بأن تربية النشء يجب أن تقتصر على تعليمه كيف يفكر ، وهو لا يرى أن الطفل مخلوق مركب من عدة عواطف هي الحب والكرهية والخوف وغيرها ، بل يرى أن التعليم يجب أن يكون ديناميتيا ، ولكنه لا يرى أن الطفل ديناميت في ذاته .

وإذا كان فرويد يعتقد بأن الحياة الجنسية هي كل شيء . فإن شو لا يرى فيها هذا الرأي بل يقول : أخبرهم عن حقيقة وجودهم ، فالحق يملك حراً على الدوام . والمتتبع آراء برنارد شو منذ عام ١٩١٠ ، والمستوعب كتابه الجديد قاموس السياسة ، يرى أنه لم يأت بجديد بضيفه إلى سياسة التعليم المعاصرة . لأنه لم يتأثر مطلقاً بتقدم علم النفس . والحقيقة في أمر برنارد شو أنه ينظر إلى مدى أبعد مما ينظر إليه رجال التعليم أنفسهم . وقد يكون نظام مدرسته مفتقراً إلى نظريات قوية ، ولكن فلسفته المدرسية اغنى بكثير من أى فلسفة أخرى معاصرة لها ذلك لأنه يعتقد بأن التعليم الصحيح هو ذلك الذى يقفز بالنشء من مجاهل الطفولة إلى شرح الشباب من غير مضاعفات أو رد فعل .

ويعتقد كثير من الناس أن تأثير برنارد شو على سياسة التعليم ليس بالشئ الذى يذكر . ولكن البعض بعده من أكبر مصلحي التعليم في الوقت الحاضر ، لأن تعاليمه منطقية وحكيمة ، في وسعها أن تهدم وتقوض بعض النظم التي جرت عليها المدارس منذ عهد طويل .

وينادى برنارد شو بهدم المدارس ، كما سيري القاريء فيها بعد . وهذا لا شك نداء يخالفه فيه كل رجل من رجال التعليم في كل صقع ومصر ، والناس يعتقدون أنه كاتب فقط وليس عالماً نفسانياً على علم بخبايا النفس .

ويقول : أونيل ، في معرض الحديث عن رأيه في أقوال برنارد شو التربوية : إننى أكتب ما أراه ولكن شو يكتيب ولا يرى ، بل يكتفى بنشر الاشجار في حديثه ! ولهذا أقول إن برنارد شو في وسعه أن يكتب رسالة ضافية ينقد فيها نظم التعليم المعاصرة ، ولكنه ان يصبح مثلاً وزيراً للمعارف !! ،

أخطار المدارس ووجوب هدمها

يقول برنارد شو :

يصير الأطفال في سن معينة كالجرذان تماماً ، يخافون الظلام والأشباح والكلاب والبقر ، كما يتوهمون اللصوص وحية الجرس ، القرطال ، . وهم في هذه الحالة يقعون تحت رهبة الخوف المطلق ، ويتقدم بهم العمر ، فيشعرون بالخجل الجبنهم ، فيقعون من جديد تحت نير حب التظاهر بالشجاعة . ومن ثم يقدسون العظمة الفارغة ، ويفخرون بحب المظهر واللباس ، ويشهدون بسرور دافق ما ينزل بغيرهم من عقاب ، فيخضعون تدريجياً إلى نظم وقواعد الخلق والسلوك ، إلى غير ذلك من قوانين ومظاهر المجتمع الكاذبة . .

وهذه الحالة لها رد فعل شديد على نفسية الطالب . لأنها تولد فيه إجهاضاً لا يسلم منه المجتمع طول الحياة . ودعني استعرض بعض ما يحدث في أرقى مدارس إنجلترا ، ولنضرب مثلاً بصبي شامت له الأقدار أن يكون أبواه من الأثرياء . فإن المدرسة التي يلجأ إليها هذا الطالب لن تكون مدرسة عادية . يجاور فيها ابن حداد أو ابن قصاب بل هي مدرسة يجلس فيها إلى ابن أحد اللوردات أو الأمراء . وأول ما نعرسه فيه هذه المدرسة أن العمل اليدوي ليس من صفات الجنتلمان بل شغل الوظائف الحربية أو السياسية هو ما يجب أن تصبو إليه نفسه ؛ كذلك الصيد والقتل والسباق يجب أن تكون جميعها هواياته المحببة إليه في أوقات فراغه ، وتعلمه أن الدين هو الذهاب كل يوم أحد إلى كنيسة الناحية الفاخرة في أحيى حله وثيابه . . ثم تطلعه على أن الاندماج في السياسة قد يخلق منه ذلك الرجل الرمزي ، الذي يعيش معبوداً وسط الرعاع طول أيام حياته . وأنت بذلك لن تحصل فقط على عضو جديد في الحكومة الأثرياء ، الذي إن تحدث فإنما يتحدث بسلطان المال . بل تحصل على دله أهلي ، غرائزه الاستعمار . . ثم على إنسان غريب التكوين ، أخرجه لك مدرسة راقية مثل أتون ، أو هارو ، أو أكسفورد ، التي تتخرج فيها كل عام طبقة جديدة تضاف إلى طبقة البلوتقراط ، الملعونة !!

وهذا هو بلا شك الردة إلى نظام الإقطاع. والانعطاط إلى حكومة البلوتقراط،
التي تعترف بتراس الطبقات، طبقة فوق طبقة، أو النظام الذي يحفظ كيان الممتلكات
في يد الأفراد. والالقاء التي يتوارثونها أبا عن جد. ثم الثروات الضخمة
التي تتحول إلى أحقادهم لقمة سائغة... وقد ظل هذا النظام قائماً حتى أوائل القرن
التاسع عشر، حينما سلم النظام الأرستقراطي زمام الحكم إلى رجال الأعمال الذين
أثروا من تجارتهم بفضل الانقلاب الصناعي، وكان أولاد الأغنياء يرسلون إلى
المدارس لا ليحصلوا على إجازات أو ثقافة ذهنية أو أية معلومات أخرى. بل
ليدمغوا بطابع أولاد الذوات الممقوت. كأعضاء جدد في دولة البلوتقراط!

هل أذكرك برباط المدرسة العتيقة؟، الذي أدخل لعبة الكريكييت والتنس
والجولف كالألعاب راقية تقتصر على أولاد الذوات المترفين!! والايبيكييت وطهجة
الكلام الفيكتورية الخاصة بهم دون سواهم، وهم لا يعرفون شيئاً عن العالم الخارجي
أو عن مساوئهم وأخطائهم، لأنهم ملغمون، مطموسون بمسادات وغطرسة القرن
السابع عشر!!

وعند ما أصف برباط المدرسة العتيقة، فإنما أصفه كثنين هائل جثم على صدر
القرن التاسع عشر. لا أريد أن يفهم القاريء أنني قصدت أن الثورة الصناعية
هي الأخرى تين آخر، أو أن الصعلوك هو أيضاً تين مرعب.. ومن الحق أنه
ما دام هذا الصعلوك يعمل لكسب عيشه، فقد يتحول إلى ذلك التين. من بدرى؟
ولكنه على كل حال ضعيف فاطر لا خطر منه. مخلوق على أية حال!

ولست أنا صديقاً للفقير أو عدواً للغني كما يظن بعض الدهماء أن هذه من
صفات الرجل الاشتراكي.. فعند ما كنت طفلاً كانت مربيتي تأخذني للنزهة
كما تنزه كلباً!! كانت تصحبني إلى أقدر الأحياء لزيارة أصدقائها بدلاً من أن تنزهني
في الأماكن الراقية المعروفة. ومن الطبيعي أنه تولدت في كراهية هذه الأحياء
الفقيرة وساكنيها. وأود اليوم من صميم قلبي أن تحرق هذه الأحياء الرخيصة،
ويعدم هؤلاء الساكنون. بالرغم من أنني ما زلت أذكر أنه أيام صعود نجمي
كانت تدوى في أذني عواصف التصفيق من هؤلاء الرعاع الذين أريد لإبادتهم من

الوجود ، واسكنى ما كدت أفلت من يد مربيقي ، حتى ارندت المجتمعات وتعرفت على طبقات السيدات والاسياد ، ولم أجد فيهم من يعرف شيئاً عن الرعاع الذين اندجحت أنا في أوساطهم ، وعرفت عنهم الكثير . وهؤلاء أيضاً يجب إعدامهم .

كذلك تعلمت أن مثل هذه المدارس تجنى جنسية كبرى على رجال الدولة . فينخرج فيها الاقتصادي لبحث عن المال ، ويستغل جهل الشعب . ويسير رجل القضاء في الطرق الملتوية ، بل الإجرامية أحياناً لتحقيق أهدافه التي يسعى إليها حتى رجل الدين الذي يحث الناس على الفضيلة وينهى عن المنكر ، لا يلبث هو الآخر أن يتبع طريق الرذيلة ويعيث في الأرض فساداً .

ولما كان العهد الإقطاعي في أوج عظمته ، كان لأوروبا الغربية - إله واحد ، وسماء واحدة ، للبشرية كلها ، وجميع واحد ، هو جميع ، ذاتي ، حيث تجمعت فيه كل الأرواح فقيرة وغنية ، لطيفة ورذيلة . أما اليوم ، فإن الجنتلمان الإنجليزي يعتقد في إله إنجليزي محدود الفكر ، كما يعتقد الألماني في إله أشبه بنوردك أو وطان ، والفرنسي في إله مادي أو إله لا فرنسي ، في حين أن لا أحد منهم يعتقد في أي جميع من أي نوع ١١

والحروب أصبحت شبيهة بحروب الصليبيين المتعصبة ، مجهزة بملايين الجنود وملايين الجنهات ، وملايين المعدات المهلكة المبيدة ، ولو رجعنا إلى الوراء قليلاً لوجدنا أن حرب الروزوس ، استأصات طبقة البلوتقراط لتعطى قوتها وإرادتها لطبقة البلوتقراط الجديدة ، ولكن الحروب الحديثة التي اندجحت فيها المرأة كجندة ومحاربة هددت باستئصال الجنس البشري ، وحطمت المدنية إلى درجة أنهكت فيها قوة إهلاكها للأشياء وقتلت الناس من اليأس الذي هو أخطر الأمراض ١١

ثم تسألني : لماذا أنير كل هذا في الحديث عن التربية والتعليم ، فأجيبك بأن هذا وغيره نتائج حتمية لطرق التعليم المعاصرة ، ولو كنا أبعد الناس نظراً لعالمنا الموقوف بمراعاة التحويل من الطفولة إلى المراهقة إلى الشباب ، ومراقبته مراقبه دقيقة ، ثم إجبار رجل الدولة المحرب على معاملة بلده كيتيم في الرابعة عشرة من عمره يحتاج إلى التوجيه والإرشاد .

وبالطبع هذا النظام كغيره من الأنظمة الحديثة لا يلاق نجاحاً مرموقاً في عالم الواقع ، لأن الحتمات أقوى مما يحتمل ، فمعد ما يغزو رجال الأعمال الناجحون في المدارس والأعمال التي يتوافرون على أدائها يتكون جانبان : الجانب العلمي ، والجانب العملي . وهذان الجانبان الجديدان يتخطى أحدهما الآخر في الطريق المعمود . ولا بد لأحدهما أن يتقلص ويموت في غمار الحياة ، وينفرد الآخر بالسلط والسيادة .

والخطر ناجم من أن رجال التعليم على غير حق في ضغطهم على الطلبة كي يظلوا بالمدرسة حتى الثامنة عشرة من أعمارهم . ويقضوا ثلاث سنوات أخرى في الجامعة . وهذا لا شك يقنع الآباء الذين يطمعون في أن تكون بناتهم سيدات طبقة ، وأولادهم رجال مجتمعات ! ولكن أليست ترى معنى أن واجب الدولة أن تخرج نشأ صالحاً من أطفالها . أى أن تخلفهم أعضاء نافعين للمجتمع ، لا أعضاء مدللين ! أو أليست ترى معنى أن الناحيتين على طرفي نقيض ؟

ذلك لأنه لا فائدة من ارتدائك د رباط المدرسة العتيقة ، إذا كان عليك أن تساهم في عمل بدوى . وأنت ذلك الرجل المدلل المتعلم ؟

ولنفرض جدلاً أنه ليس هنالك غير مدارس للفقراء يتعلمون فيها ، فما بالك بمدارس الأغنياء التي يتمرن فيها الأطفال والشبان على حياة اللهو والعبث والبطالة وحب المظاهر والرشوة واقتناص الفرص السياسية ، التي أتواضع أنا فاسمياً وقيادة الشعب ؟ .

أرى أن مثل هؤلاء الطلبة يجب ألا يدخلوا مدارس على الإطلاق . بل من الواجب على الحكومات أن تهدم مدرسة كأتون من أساسها . ولكن الجهل المطبق لا يخرج لنا مواطنين أقوياء . وطرق التعليم والتأديب الحاضرة خير من لاشيء ، ويستمر نظامنا الحالي على ما هو عليه حتى يتقوض وينهار أمام نظام جديد نطمح فيه .

ولكن من الواضح أن لا علاج يمكن أن يقدمه الإنسان لإصلاح التعليم

• الاتوني ، مثلاً غير إلغاء هذه المدارس إلغاء تاماً ، لأنها تحول التعليم إلى ناحية إجرامية بحتة تماماً ، كما فعل صمويل بطلم في روايته المشهورة « إروهون » ، حيث النى الآلة . وكان من نتائج ذلك أن اعتقل الناس أحد الرحالة ، لأنهم وجدوا في جيب سترته ساعة !!

فعلى نظامنا الاتوني العفاء لارده الله إلى الوجود إذا قبض له العفاء .

أما ما اقترحه أنا ، فهو وجوب إنشاء مدارس لتعليم الطبقة المتوسطة ، على أن يكون فيها الأولاد والبنات جنباً إلى جنب ، وأن يقسموا حياتهم اليومية بين المدرسة والبيت . كما نجد اليوم في أيرلندا أن الطالب الخارجى يقضى نصف يومه في المدرسة ولا يعود إليها بعد الظهر ، لأنه قد يجد في منزله عملاً يفيد أو يوسع من خبرته ، بدلاً من الانكباب على الاستذكار يوماً بأكمله ، بين جدران أربعة يعمل فيها الطالب ، ويود لو قرع ناقوس الانصراف لينطلق من سجنه ...

وأذكر أنني لم أتعلم في المدرسة آداب السير والسلوك ، ولم يمنعني النظام المدرسى القائم آنذاك من المشاجرة والاشتباك مع الأطفال في مشاحنات عنيفة لا سيما مع زميلي الذى كان يشاركنى مقعدى .

لقد كرهت المدرسة ولم أجد فيها شيئاً ينفعنى ، ولما هربت منها فى سن الخامسة عشرة ، حسم على بالاشتغال الشاقة خمس سنوات فى مكتب من مكاتب رجال الأعمال ، وعرفت فى نهاية الحكم أشياء كثيرة عن العالم الخارجى ، أكثر مما يعرفه خربج اتون أو اكسفورد أو هارو أو حتى كامبردج !

ولا تعجب أيها القاريء إذا عرفت اننى تعلمت آداب المقابلة والسلوك من كتاب قرأته وأنا ذلك الموظف الصغير !

وهكذا بدأت أهدب نفسى ، وأغذيها بكل ما تحتاج اليه ، بدلاً من انتظارى السنين الطويلة ، مرغماً تحت تأثير غيرى ، انظر منه أن يهذبنى ويعلمنى ما كان فى وسعى أن أعلمه وحدى ...

اهدموا المدارس واستريحوا . وانظروا إلى المستقبل نظرة جديدة وكفاكم هذا ...

ثانياً - الرجل المتعلم ونصف المتعلم والمتعلم الفاسد

يقول برنارد شو في الرجل المتعلم :

د ا ، إن حكوماتنا العرضية ليس في وسعها أن تجعل معاهد التعليم في حالة مرضية على الدوام .

وفشلنا مصدره نظام المدرسة العتيق الذي لا يتغير ، ففي الماضي البعيد عند ما كانت كتبنا ومراجعتنا الدراسية مكتوبة باللغة اللاتينية ، كان علينا أن نقرأ ونكتب اللاتينية ، وإلا عسر علينا فهم الكتب ومراجعتها . فبدون اللغة اللاتينية كنا جهلة لا نفقه شيئاً . أما اليوم ، فاللغة اللاتينية أصبحت لغة ميتة لا تكتب بها الكتب ، فالرجل الذي لا يفهم لغة أخرى هو في الواقع رجل جاهل وفرق ذلك أصم وأبكم أيضاً !! ولكن نظام المدرسة يتجاهل هذا التغير ولا يزال يقر بأن اللغة اللاتينية هي لغة الادب والثقافة . . ونتيجة ذلك أن طبقة حكامنا الذين تدرجوا في المدرسة الأولية إلى الثانوية إلى الجامعة ، طبقة جاهلة كأى طبقة متمدينة أخرى يمكن أن تكون الآن ؛ وتحمل في طياتها كراهية ومقتاً لطبقة الدماء وغير المتعلمين أو التي دونها علما ومعرفة . وهنا أيضاً نجد مرة أخرى ، رغم أنه ليس هناك حيوان واحد في الوجود ، مثل الرجل المتعلم الجاهل تمام الجهل ، وذلك حكم صادر من دقوة المجتمع ، على القوم الذين تعلموا في المدارس والذين يجب أن يعدم رجل الدولة كجهلاء غير مثقفين !

وليس جهل الجاهل أو غير المتعلم يخيفنا على الدوام ، رغم أنه أصبح خطراً ، كالتصويت لكل فرد في الانتخابات النيابية ؛ وذلك لأن الجهل يمكن حصره وتهذيبه . ومن السهل أن يكتب الإنسان على لوح اردوازي نظيف . ولكن ألواح الاردوازي في مدارسنا غير نظيفة . إذ أنها ليست كلها مطموسة بمعالم الدهر اللاتيني فحسب ، بل بحوادث التاريخ المشوهة الخرقاء ، وخرافات البرابرة ، وألغاز العامة ، وهراء القرون المتجمعة المتأكسدة ؛ ولهذا فإن هذه الألواح ليست نظيفة . وكل من يحاول

تنظيفها يعاقب فوراً ، أو أقل ما يقال فيه أنه عدو الله والناس .

ومن ألواح « أتون ، و « هارو ، و « رجي ، و « ونشستر ، تعلم حكمانا أن دعاة مذهب « الاعتقاد بالله وحده وإنكار الوحي ، مثل فولتير وروسو وتوم باين كانوا ملاحدة زنادقة . وأن واشنطن وبرجهام ويونج وماركس ولينين كانوا وحوشاً مخربين ، وإن معركتي ترافلجار ، ووترلو كانتا نصراً حاسماً للحضارة وللإسادة البريطانية 111

وهذه مجرد أمثلة بسيطة للخرافات والأوهام التي تتغذى عليها عقول صغارنا في المدارس : وفي النادر القليل تجد هذه الدراسات الجوفاء عقولاً قوية لا تقبل الخرافات أو تتأثر بأساطير كقوليتز مثلاً ، وقد تعلم على يدي « الجوزويت ، ثم أصبح عدواً لدوداً للكنيسة الفرنسية . كما أن فساد هذه الدراسات السياسي ، والاختطام الكثيرة في تسلسل تواريخ الأحداث كلها صدعت أركان هذه النظم الفاسدة... إذا كان اللاطفال أن يفشوا كمواطنين صالحين يجب أن يتعلموا أولاً أن لا يدخل آباءهم في تعليمهم ، حتى إذا كان لديهم الوقت الكافي . ويجب على السياسي أو رجل الدولة أن يضع نصوصاً لتعاليمه ، وإلا فسيجد نفسه يواجه أعسر مشكلة أمامه ، وهي أنه يهيء حضارة لتوحشين لا إلى مدنيين 11 ولكن إذا كانت الحضارة من نصيب كل إنسان يفعل ما يفعله الآخرون . فما الذي يحدث للتقدم ، وللتغيير ، وللطور ، وللإختراع ، وللإرادة الحرة وللحرية الحديث ، وللحقوق المدنية ، وكل ما ينير الأحياء من الأموات ؟ يأتي السؤال ساعياً على قدميه ، لأنه في أحوال كثيرة تظهر لي ذات أهمية كبرى ، أريد أن يتوقف العالم عن فعل ما يفعله كل إنسان ويعمل شيئاً آخر ، حتى إلى الحد الذي تعمل فيه أعمال الأجرام ... ويرينا التاريخ أنه إذا لم يسمح لأي إنسان أن يعلن وينادي بهذه التغييرات فإن الحضارة سوف تموت وتندثر ...

إذن فن غير القانون والنظام لا يمكن أن توجد الحضارة . وحتى إذا توفرت القوانين والأنظمة المختلفة ، فهناك أكثر من مجال للعصيان والفتنة ، للقتل والسبي ، للتجديف والكفر ، للمرطقة والانحراف ، للابتداع والاختلاق ، بل إن التغيير

والتبدل أو الحضارة لا بد أن تصطدم ، ويعتريها ضعف وانحلال ثم لا تلبث أن تنهار من جديد ، إن لم يسعها الاكتشاف العلمي والتهذيب الأدبي . .

وواجب على الحكومات أن تتعلم كيف تضطهد وكيف تتسامح ، وواجب عليها أيضاً أن تقرر باستمرار متى وأين تضطهد ، ومتى وأين تتسامح ؟ وواجب عليها أخيراً ألا تتعلم الاضطهاد أو التسامح أو تتخذها مبدأ من مبادئها .

وما دخل هذا بالتعليم . . بتعليم الطفل والنفس ؟ ! إن لهذا كله أثراً كبيراً في سير التعليم والنهوض به إلى مرتبة عليا !

فللطفل أن يلقن أو يتعلم شيئاً في آداب الحكمة وليكن الدين ؛ والسكن المشكلة تبدأ هنا . . هل لهذا الطفل أن يتعلم دين أبويه أو دين المدرسين الذين يلقنونه العلوم ويعذونه بشجرة قرائح الكتاب والمؤرخين ؟ ! ولنفرض جدلاً أن الأبوين من « الإخوة البلوثيين » ، أو من « شهاد يهودا » ، وأن المدرس « دارويني لا أدرى المذهب » ، فإن نزاعاً سينشأ نحوه : هل للدولة أن تتدخل وتجبر الوالدين على قبول تعاليم زمرة المدرسين الذين اختارهم من غير الرجوع إلى الوالدين ؟ !

ففي القرن التاسع عشر ، ظهرت بدعة سميت « بالتعليم العلماني » ، نادى بها الملحدون واللاأدريون والدروانيون وكانت مبدؤهم ألا يعلموا الدين ومبادئه في المدارس على الإطلاق . ولما كان على الاطفال أن يتعلموا ليسلكوا السلوك الحسن كانت هذه البدعة عسيرة التحقيق ؛ وكان مجرد تعميمها إيذاناً باستبدال الخوف من الله بالخوف من العصا !!

واجب الدولة أن تكون مسؤولة عن صياغة قوالب النفس بأن تخلقهم مواطنين أحرار ، ولا يجب أن يكون هناك اصطدام بين المدرسة والآباء ، كما يجب ألا يناقش الآباء أبناءهم في مسائل الدين ، بل يتركونهم في رعاية الله وبين يديه . . .

إن بداخل كل إنسان « نورا داخلياً » ، يرشده إلى حقيقة وجوده . . . وما هو هذا النور الداخلي ؟ !

إنه علمياً . . لا يزال سرّاً .

ولكن من أجل ، وزارة المعارف ، أقول إنه وجهة النظر الخاصة التي يدين بها المواطن بقبوله الحقائق التي يعرفها بنفسه .

إذن فن الضروري أن يعرف المواطن الحقائق كما عرفت به ، كما أن واجب الآباء ألا يلقنوا الأطفال الكذب بدلا من أن يعلمهم العلم والمعرفة . ولكن بما يؤسف له أن هذه الطبقات جميعها تلقن الأطفال الكذب الصريح ، وعلى كل فلا مندوحة من أن تخزع الدولة ، كذباً ، من أى نوع كان ، وتلقنه لصغارها ، لأن هذا شر لا بد منه .

في إمكان المدرسة أن تجهز الطفل على إطاعة أوامرها ، ولكن الطفل قد يهمل هذه الأوامر ولا يلتفت إليها . بل يتخلى عن طاعة المدرسة عند بلوغه العشرين من عمره . ونفس على ذلك ألف حالة وحالة لها أثرها في نفسية النفس .

وعليها أخيراً أن نتذكر أن خرافات كثيرة ماتت ، ولكن بعضها لم يمض بعد من نفوس أناس كثيرين .

أذكر مرة أتت دعيت إلى حفل عظيم ، لجيش الخلاص ، لإحياء ذكرى مسز ، بوث ، ودعيت لأنى كتبت رواية كانت بطلتها فتاة من ، جيش الخلاص ، . وجلست في مكان ممتاز ، وابتدأ الترنيم حماسياً داوياً ، وما انتهينا منه حتى اندفعت نحوى فتاة صغيرة ، وتناوات يدي ، وقد طغت عليها موجة الترنيم فهزت مشاعرها ، وقالت والدموع تترقق في مقلتيها ، آه يا سيدى . . إنا نعرف . أليس كذلك ؟ ، فإذا كان على أن أقوله ؟

فمؤلاً الذين يعتقدون في الحقائق ، ويعرفون عني أنى لا أعتقد في خرافات الكذب التي لفتت إلى الأطفال ، لا شك أنهم سيقولون . ان جوابي كان لابد أن يكون هكذا ، يا صغيرتي العزيزة . إنك مخطئة . كل هذا الذى سمعته عن السلم الذهبى الصاعد إلى السماء ، في الترنيمة التي رنمناها معا ، ما هو إلا خرافة . فليست هناك سماء ، ولا سلم ذهبى . هل لى أن ارشدك إلى دراسة أعمال تشارلس برادولوف أو كولونيل انجر سول ؟ إننى أعتقد ما يعتقدان . مساء الخير !! ،

ولكنى لم استطع أن أقول ذلك ، ولم أرد أن أقوله . وكل ما فعلته أننى
تظاهرت متأثراً مثلها ، وتناولت يديها وتركناها تعتقد ، بأننا نعرف ، وأننى اعتقد
فى كل شىء تعتقده هى . وكل من يلومنى على هذا الرياء غير صالح لأن يشغل وظيفة
وزير معارف فى يوم من الأيام !!

ويقول برنارد شو فى « نصف المتعلم » :

« ب ، لو اعتبرنا أو قلنا إن خريجي الجامعات متعلمون ، فلا بد لنا أن نجد عنوانا
آخر لهؤلاء الذين لم يكن فى وسع آبائهم أن يعلموهم تعليماً عالياً ، فتركوا المدارس
مبكراً ، وابتدأوا يعملون ليكسبوا عيشهم كـ مكتبة ومساعد ذوى باقات بيضاء
ومعاطف سوداء ، يبدو لهم التعليم الأولى وعادات الطبقة الوسطى وأخلاقيها
ذات أهمية كبرى . ودعنا نسميهم « أنصاف المتعلمين » .

وأنصاف المتعلمين يظلون على حالهم هذا ، يتوارثون هذه الصفة من الآباء
إلى الأبناء ، ويظلون على حالهم من الفقر ، وقصر اليد ، وهم ليسوا فقط أنصاف
متعلمين بل « أنصاف مهذبين » .

ولكن أنصاف المتعلمين هؤلاء يسيطرون على الدولة ، ويدبرون كل أعمالها .
هذه الفئة التى خرج منها شكسبير وديكنز وبنيات وبليك وهو جارث وترنر
وبرسل والجار ، وفئة كبيرة من مشاهير الممثلين فى بورباج إلى سلوفان ، مشاهير
رجال أعمالهم وجنودهم ومحاميهم ورجال الكنيسة . ولو نظرنا عبر القارة لوجدنا
سينوزا وروسو ، ومئات من المدرسين الذين كسبوا عيشهم عن طريق احتراف
الموسيقى ..

وعلى هذا فن طبقة أنصاف المتعلمين ، ترى المستقبل مفتوح على مصراعيه لأصحاب
المواهب منهم . ومن الحق إذن أن نقول بأن العبقرية قد تظهر فى كل الطبقات وقد
يعوق ظهورها الفقر والجهل فى أغلب الأحوال .

وفى الطبقة الوسطى قد يتمنى على الله أن يصبح عظيماً ، إن لم يكن شكسبير
أو رئيس الأكاديمية الملكية ، فقد يكون كجون جلين فى شهرته وذيق صيته
وجون جلين قد أصبح والحالة هذه بقالاً أو ساعى بربد !!

إن أطفال الطبقة الوسطى يشبون في بيوت مزدهرة بالكتب وآلات الموسيقى وفيها قليل من الصور ، فيتعلمون كيف يقرأون ويكتبون بسهولة ، وفي وسعهم أن يحصلوا على المعرفة التي يريدونها . . . وهذه المعلومات المكتسبة على مر الزمن تكسبهم حصانة ومعرفة ودراية أوسع من هؤلاء الحاصلين على درجات عالية في الآداب والعلوم .

ونصف تعليمهم هو النصف الجيد . .

ففي وسع هؤلاء أن يصبحوا مدرسين ذوي خبرة واسعة ، وليس العلاج الحامى لمثل هؤلاء أن نرسلهم إلى اتون أو اكسفورد أو هارو أو كبرديج ، ونخلع عليهم أربطة واوسمة المدارس العتيقة ونزحم ذاكرتهم بأفكار وتقاليد السير ايشستر ددلوك ، بدلا من أفكار جون جلين . . وإن كان الرجلان على جانب كبير من الالهمية ، وليكنهما أصبغا قديمين لا يصلحان للجيل الجديد . . بل العلاج الصحيح أن تتركهم وشأنهم يتعلمون من يتابع المعرفة من غير قيود حتى يشبعوا ظمأهم ، ويسدوا نقصا لحقهم !!

من الطبيعي أننا نقسم التعليم المدرسى إلى تعليم أولى وثانوى وفنى حر . . أما طبقة البلوتقراط فيذهبون مذهبا آخر ، لهم مدارس إعدادية ونموذجية وخصوصية وفيها يتجه الطالب اتجاها معيننا فاسدا على خط مستقيم .

يطلعنا تشارلس ديكنز في كتابه دوبيسى وابنه ، على قصة طالب فقير انهك نفسه في العمل المدرسى ، فمات مأسوفا عليه فبكيناه . . وفي الوقت نفسه يطلعنا على مأساة دوتس ، الطالب الغنى الفارغ العقل الضعيف الذاكرة الذى يحاولون أن يخلقوا منه شاعرا لانيفيا مطبوعا !!

قلت أكثر من مرة إن تعليم النشء علوما لا تفيده ولا تنفق وأهواءه محاولات فاشلة لا تأنى بشمرة طيبة !

إذن فعلى ضوء ما ذكرنا ، كيف نجهز المدينين ؟ وأي ثقافة يجب أن يتناولوها ؟ الجواب على ذلك : على رجل الدولة أن يهيء للراغبين فى العلم أو فى أنواع خاصة

من العلوم كل الوسائل ، على أن يكون دقيقا في اختياره نوع التعليم الملائم للطبقات .
على المدنيين أن يتعلموا القراءة والكتابة ، أى نوع من القراءة والكتابة ،
قراءة الخطابات أو قراءة الشيكات ، بل عليهم أن يتعلموا أكثر من ذلك . . . عد
النقود مثلا ؟ ! ! عليهم أن يتعلموا بعض الحساب ، وعليهم أن يعودوا النظام
وأهمية احترام القوانين وأدب السلوك والذوق واللباقة ، وما عليهم أن يعملوه
في يومهم وما لا يجب أن يعملوه . . . وغير ذلك من المعلومات الضرورية
في الحياة العملية . .

كل ذلك من مستوجبات تعليم هذه الطبقة ، أنصاف المتعلمين الذين تمتلئ بهم
الدول ، ويفشون السواد الأعظم من الشعوب .
وأخيرا إن النصف المفقود في تعليمهم هو النصف السياسى كما ستقف على
ذلك فيما بعد . .

• • •

ويقول برنارد شو فى « المتعلم الفاسد » ،
« ح ، يشكو التعليم اليوم من الفساد السياسى رغم أنه لم يشك من ذلك الالم
فى « عصور الايمان ، عندما كان لأوربا إله واحد وعقيدة واحدة . تخلصت من
المراطقة بإحراقهم جهارا نهارا . . . وكان كل إنسان قد أعد ليكون كاثوليكيا
مسيحيا ، يحترم القوانين الوضعية التى لا تقبل المناقشة أو الجدل بحال من الأحوال ،
ولكن هذه النزعة لم تقيض لها الأزمات البقاء ، فسرعان ما انمحت واندرت
من الوجود .

وليس أدل على هذا الفساد السياسى من المحاولات الكثيرة التى كان أبطالها
نفر من مشاهير رجال التاريخ . فقد فشل نابليون ، لأنه لم يستطع أن يجعل من
أطفال أوربا « بوناپارتيين » ، وفشلت امبراطورية - بسمارك هو هنزولرن - لأنها
لم تسيطر على بقية العالم . وحل هتلر الإمبراطورية السابقة ، وأقام بدلها الهتلرية .
واضطهد اليهود وحاول أن يخلق ألمانيا أنقياء ، ولكن أمه هذا كان مجرد
أضغاث أحلام !

وإن كان نابليون وبسارك وقيصر وموسوليني وهتلر محققين في نظريتهم التي تقول بأن لا نظام حكومي يمكن أن يعيش طويلاً من غير أن تصاغ أطفال الدول في القالب الذي يلائم هذا النظام الجديد ويضمن له طول البقاء .. ، وعليهم جميعاً أن يتعهدوا حداق غرسهم من وقت لآخر بالرى والنماء ، وإبادة الحبيث من الزرع ..

والحكومات الصادقة الآمينية ، مستحيلة من غير مدارس صادقة وأمينية . ولكن المدارس الصادقة الآمينية غير قانونية تحت رعاية الحكومات المستبدّة الطاغية . والتعليم الصادق الآمين خطر على الطفليان وقوى الجور والاستبداد ، وهذا الفساد السياسي يكاد يكون عاماً في العالم اليوم .

فالتعليم الديمقراطي لا يمكن أن يستقيم تحت الرأسمالية ، لأنه يقود إلى اعتناق الشيوعية التي تعمل الرأسمالية على هدمها وإبادتها وتقليم أظافرها على الدوام . وكل هذا حسن ، ولكن لا يجب أن يغرب عن البال ، أن الرأسمالية لا يمكن أن تتقدم أو تتحسن من غير التعليم الفنى المطرد ، كما يجب أن تنحصر إهتمامها في الناحية الثقافية ، وقد يكون محاسبوها بلاء سياسيين ، ولكن عليهم أن يعرفوا أن اثنين واثنتين يساويان أربعة وليس خمسة ١١ وعلى تجارها أن يعلموا أيضاً أن اثني عشر قدماً أطول من اثنتي عشرة بوصة ، وعلى قباطنة بواخرها أن يعرفوا أن العالم ليس مسطحاً ١١

وقس على ذلك كل مبدأ ونظام ظهر إلى الآن ١ .

ليس في وسع حكومة ما أن تعمل من غير عقيدة ثابتة أو مجموعة وصايا . ولكنها مع هذا لن تستمر في هداية أطفالها بل ستضطهد الهراطقة من رجالها ١ وخير علاج عام لمثل هذه الحالات أن نضع نظاماً خاصاً يكفل للنشء كل أمانة وسلامة ، وأن يتعلم الطفل أصول الدين بطريق السؤال والجواب ، وأن نجعل كل مقاييس الحكمة مفتوحة للمناقشة والجدال ..

هذا هو الاتجاه الصحيح ، ولكن ما دامت فرص مناقشة القوانين محدودة ،

ومحاولة تغييرها وإبدال غيرها بها محدودة أيضاً ، فمن الجلى أن الحل الوحيد لتغيير القوانين هو أن يخالف الناس القوانين حتى تموت ويحيا غيرها . وهذا طريق غير شرعى . بل إذا كانت الحكومات قد تبصرت لحلت القوانين الموضوعية وبدأت بها غيرها معقولة . وما وجدت المخالفات المتوالية والبطلان الاخير مكاناً فى الدولة .

ولذا فن واجبنا أيضاً أن ندع أطفالنا ، عند ما يشبون ويصبحون فى حالة تؤهلهم لفهم هذه الأشياء ، يفهمون أن القوانين والعقائد ما هى إلا وضعية من صنع الإنسان ، وليست أبدية خالدة ، ويجب أن تتغير وتتبدل بتغير حالنا وتقدم معرفتنا ، وإن كانت فى الواقع عوامل أساسية للنظام المدنى ، ومن غيرها تنفشى فى المجتمع روح الحمجية المطلقة والردة إلى حياة الغاب .

وتغييرنا لهذه القوانين يجب أن يكون فى غاية الحرص ومنتهاه ، فلا يتهدى حدود المعقول وإلا انقلب بنا الحال واستفحل الداء ..

وهناك شىء آخر لا بد من ذكره . وهو أن كل إنسان يجب أن يتعلم كل شىء . يجب أن تفرق بين الاذواق ، كما تفرق بين الكفايات . وما لا شك فيه أيضاً أننا سنعد أنفسنا بلاء إذا لم نعرف ما وراء الأشياء التى نعرفها جيداً . فكثيرون لهم مقدرة كبيرة على تذوق الأشياء . ولكن ليس عندهم مقدرة على إظهار هذه الكفاية . إنهم يقرأون كل رأى ومذهب فلسفى جديد ، ولكنهم ليس فى استطاعتهم أن يأتوا بنتيجة منطقية واحدة ، فى حين أن آخرين لا يعرفون القراءة أو الكتابة يأتون بنظريات معقولة .

وخذلك مثلاً أن آلاف النظارة يذهبون من وقت لآخر لمشاهدة مباراة فى كرة القدم ، أو إلى مباراة أو مصارعة من غير أن يلعبوا الكرة مرة واحدة أو يضعوا فى أيديهم قفاز لعب . وآخرون يطربون لنغم موسيقى من غير أن يعرفوا شيئاً عن النوتة أو الآلات الموسيقية ذاتها . إنهم يعرفون القشور عن هواياتهم ، فى حين أن اللاعبين أنفسهم هم الذين يعرفون دقائق ألعابهم ..

ولنعد مرة أخرى إلى المدارس فنقول : إن المدارس فى عهدنا كانت سجونا ولا تزال كذلك إلى يومنا هذا بمعاداتها للتعليم والتنكيل ..

إن حياة الطفل يجب أن تنظم في أجيالها المتعاقبة لتنجي رأياً قوياً بين الأجيال بأن هناك أشياء ثابتة يجب أن يعرفها كل إنسان ، فالرأى العام - كما سبق أن ذكرت - غير موجود وجوداً تاماً في دائرة الطفل ، يحتاج إلى تضيق الحرية لا إلى إطلاقها . والتعليم يجب أن يأتي بثمرة الحرية وتحسين الحال . لا بمنح الجوائز والمداليات كما أن امتحانات المسابقات يجب أن تلغى إلغاء تاماً ، لأنها تمنح المتسابقين لذة خاصة لجهل غيرهم وفشلهم وتعاونهم على إحباط عزيمتهم والنيل منهم ودحرهم في ميدان المسابقة . هنا ينشأ لون غريب من الكراهية بين الأفراد ، والحقد بين نفوس الطلبة بعضهم لبعض . والتسابق يجب أن يكون فقط - كما أراه - بين الجماعات ليعاود الناس بعضهم بعضاً ويتقاسموا المعرفة والعلم ..

النظام أساس النجاح ..

لهذا يجب أن يعيش الأطفال في مجتمع منظم بمعاهدته المنظمة التي تسمى إلى خير الطالب ، وإلا لما وجب عليهم أن يعيشوا ..

وليفهم كل إنسان أن البيوت والأسر والمدارس ليست معازل وسجوناً .. يجب أن يتعلم الفشل ليعيش في حرية أوسع ، وليس للأشغال الشاقة المؤبدة .

إن التعليم ليس مقصوراً على الطفولة وحدها ، فأنا في عاى الثامن والثمانين ولا يزال أماًى الكثير مما يجب أن أتعلّمه حتى في طاقة كفايتى المحدودة ..

ثالثاً : الرجل الاقتصادى

كل الرجال اقتصاديون من مهدم إلى لخدم ..

فالأكل والنوم ، والحصول على سرير تحت سقف المنزل ، والملابس الهامة للجسد ، كل هذه أوليات لا بد منها لنا جميعاً ، لأننا من غيرها نموت ونهلك . ومن أجل هذا فكلنا مشاكل اقتصادية لرجل الدولة .

إن تسعة أعشارنا يمكنهم أن يسدوا نفقة أسرهم بخمسين في الأسبوع . حتى إن مثل هذا المبلغ ليكفى الرجل الرأسمالى المنظر لسكيلا يقتل الأوزة التى تضع له البيض الذهبى ...

يصبح الرجل اقتصادياً من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه عند ما يجوع أو يبرد أو يتعمرى . وعند ما تطعمه وتلبسه وتأويه ، مهما كانت درجة بؤسه ، يتوقف عن أن يكون اقتصادياً ، بل يغدو مخلوقاً كثيراً الهواجس ، زائغ البصر ، تتجاذبه عواطف شتى ، وحالات متباينة تختص فيما تختص بالفلسفة العقلية ..

خذ لذلك مثلاً أن كبير هارى ، مؤسس حزب العمال المستقل خطب مرة في مجموعة كبيرة من رجال بؤساء كانوا ينتظرون عملاً بالمياومة في ميناء لندن في فجر يوم من أيام الشتاء الفارس ، وكانت هذه الهمم أحقر فئة من طبقة العمال ، وكان يزيد بؤس فقرهم مطر غزير انهار عليهم كالسيل المنهمر فحدثهم كبير هارى عن الاقتصاد ، ثم أمطروهم بوابل من الأسئلة ، وعندئذ هب رجل من الجمع كان قد أسند ظهره أكثر من ساعة إلى حائط الميناء ونصف جسمه تحت أفواه القرب وقال : إنه استمع إلى خطاب المتحدث البار ، ولكنه دهش لأن الخطاب لا يحوى شيئاً في السياسة ..

وهذا نوع من الرجال غريب ، مهما كان فقيراً إلا أن اهتمامه بمسائل بلده قد تتسلط على فكره فتتخلقه بطبعه ميالاً إلى الفلسفة العقلية ..

ومن واجبتنا أن نجعل الرجل الاقتصادى أكثر اقتصاداً مما هو عليه ، لأنه إذا ارتقى به الحال وارتفع مرتبه من جنهين إلى أربعة مثلاً ، كان عليه أن يتصرف التصرف الحسن ويعمل للفاقة حساباً ..

بل إنه من السهولة بمكان أن يصبح كل إنسان غنياً إذا ضيع كل أوقاته في جمع المال ، بل إن كثيراً من عمال المصانع يربحون أضعاف أجورهم إذا قدموا آراء نافعة لتقدم العمل وبدلاً من أن يرفع هؤلاء العمال معيشتهم ويعملوا على تحسين حالتهم ، يتغيب العامل منهم ثلاثة أيام في الأسبوع يقضيها في عقر داره خاملاً نائماً أو منتزهاً أو متسكماً مادام معه المال . وقد تتكرر من هذا الفرد هذه العملية أكثر من مرة ، فيضطر صاحب العمل أن يضع حداً لكثرة الغياب ، بخفض أجره العامل ، ومن هنا يضرب العامل أو العمال ، وتبدأ مشكلة كبرى تحمل أخيراً باتفاق الطرفين على أن يعود العمال إلى المصانع كل يوم باستمرار كما كانوا عليه في الماضي .

والآن فلننتقل إلى موضوع آخر ذي أهمية أخرى للرجل الاقتصادى ، وهو عامل الحرب فى زيادة رأس المال .

للحرب منفعة كبيرة ، كما أن لها أضرارها ومساوئها ، فمن الناحية المالية مثلا إننى أقرضت الحكومة أكثر من مرة مبالغ كبيرة من المال بسعر لا بأس به تراوح بين ٢٪ و ٥٪ . كما أن الكثيرين غيروا استفادوا فائدة كبيرة كهؤلاء الذين كانوا يبيعون المراكب القديمة بعشرة أضعاف ثمنها ، ولا تقل لى بعد ذلك إن الحرب لا تكسب أحدا ، لآتنى أعرف أكثر !!

ولو كنت أبدت اهتماما زائدا من ناحية المال ، فما لا شك أننى كنت أنرب ثراء فاحشا كثرأه أوداف هتلر وبنيتو موسولينى !

ولسكننى اكتفيت بما تدره على مسرحياتى وكتاباتى وحقوق طبعها فى أوروبا وأمريكا وتحول فى الحال وأصبحت أعيش عيشة تخالف العيشة القديمة ، عيشة الطبقة الوسطى التى نشأت فيها ، ولمع فيها نجمى ، وبدأت عبقرى تنفجر وتعمل عمالها فى العالم بأسره فأثريت وأصبحت من أعظم رجال الاقتصاد فى العالم !!

رابعاً - نظام الأحزاب فى بريطانيا

لا أحد فى هذه الجزر يفهم نظام الأحزاب الفهم الصحيح ، ولا البريطانيون يعرفون تاريخها . وكل ما يعرفونه لا يتعدى أن الأحزاب تأسست فى الطبيعة البشرية ولهذا فهى أبدية سرمدية !! وعندما أقول إنه لا وجود لها فى بلادنا أو مجالسنا يظن الناس أننى مخرف أو جاهل أو مجنون . ويؤكدون لى وجود أحزاب المحافظين والمجدين والأحرار فى مجالس الشورى كما فى البرلمان .

ولكن ما هى الحقيقة ؟ دعنى أضعها لك فى صيغة دراما قصيرة ، لأنها تسهل على ، ويلذ لك أن تفهمها على النحو الآتى :

[المنظر : قصر الأثروب .. مساكن آل سبنسر .. إيرلات - اندرلاند .. الملك

الحالى : صاحب الجلالة ولیم الثالث ، يبلغ من العمر ٤٥ سنة ،

صاحب ذاكرة حادة قوية ، ورجل تقوى وصلاح ، ومضيفه روبرت
سبنسر ، الايرل الثاني ، يكبره بعشرة أعوام ، مشهور في محاكم تشارلس
الثاني وجيمس الثاني بعبقريته الفذة ودهائه في السياسة ، الزمان
عام ١٦٩٥]

روبرت : إن صاحب الجلالة قد أضنى على شرفا رفيعاً بزيادته مسكني المتواضع ،
فأنا لست كمثوياً يا مولاي لهذا التنازل العظيم ، ولذا فإني على استعداد
يا مولاي للقيام بأية خدمة تطلبونها . . .

وليم : نعم هناك خدمة . . . فقد ضاق بي معين تفكيري ، وأريد نصيحتك
ومشورتك . إنهم يتوقعون مني حماية الدين البروتستانتي في أوروبا من
امراة روما القرمزية اللون ! وعلى أن أحى بلدك وبلادي من البريون .
وأن أفعل كل شيء في سبيل كل إنسان . . . وأن أفعل كل شيء من غير
مال وعتاد وجنود . . . وليس في وسمي أن أنظم خطط عام إلى الامام
بسبب هذا البرلمان البريطاني اللعين الذي انتخب ليحكم إنجلترا . ويريد
ما يريد الانجليز . أى أنه لا يريد أن يكون محكوماً أبداً . . . وقد تركني
في لحظة من غير بنس أو جندي ! وهذا هو جنرال فرنسا الاعظم الذي
ربح كل معاركها مات أخيراً وترك الملك لويس في قبضة يدي الفارغة .
وهذه هي اللحظة التي يهددني فيها برلمانك بمطالبة السلم . وهذا غير معقول
فليذهب برلمانك إلى الشيطان ! أما عن نفسي فسأعود إلى أمستردام ،
وخير لي أن أصبح حراً طليقاً بدلاً من ملك لا حول له ولا قوة ! إنهم
يريدون الحرية ! هؤلاء الفرسان الخنازير ! بل دعمهم يحصلون عليها ،
تلك التي تتحطم أشلاء لتدخل السرور على البابا ! الحرية هي الجسر الذي
يمر عليه الفرنسيون . . . الحرية التي تذهب إلى الشيطان ولا يتدخل فيها
ملك أو حاكم ! سألتني بالتاج في وجوههم ، وأنفض غبار إنجلترا عن قدمي
إلا إذا أريتنى طريقاً أجمل به البرلمان بطيئاً ، ويعمل بما أمره به . . .

روبرت : ليس في وسعي عمل ذلك... ولكن يمكنني أن أريك طريقا يمنع
البرلمان من عمل شيء على الإطلاق، عدا كسب أصوات الناخبين وتأجيله
إلى أبعد مدة ممكنة !

وليم : وهل في استطاعتك عمل ذلك ؟ وكل ما يعينني هو مدنا بالمال والرجال
لإنقاذ البروتستانتين من تنين البريون المخيف . وإذا لم استطع الحصول
على المال أو الجنود فتاجك لا فائدة له عندي . ويمكنك أن تحصل على
جيمس مرة أخرى . وبالطبع أنت تعرف أين تجده في جيب لويس !
وفي استطاعتي أن أقطع بأنك على اتصال به أيها المرائي ذو الوجهين !

روبرت : أنا لست غير ذلك الرجل الذي صاغته الأوراق ، ولفحته شمس الزمن . فأنا
على اتصال بكل إنسان ، فليس يدرى أحد ماذا يتمخض عنه المستقبل
من أحداث ؟ وبودي لو استطعت أن أحول عقل مولاي عن التفكير
في أمر البروتستانتين والجيش ولو لحظة واحدة . وأود لو استطعت أن
أقنعك بأن من تحاربه هنا ليس الملك لويس ولكن البرلمان البريطاني !

وليم : حسنا ، وهل تريد أن تفهمنى ذلك .. ألم أقل لك ! !

روبرت : ابق على هذه الحقيقة يا مولاي . ولا تكن ما أكون على حد تعبيرك
المرائي ، مدبر المكائد !

وليم : يا الله . ! انه الواقع .. الواقع بتمامه حقيقة !

روبرت : وهل يتكلم مولاي ويزيد الكلمة لتكون ، مدبر ، كائد ناجع ! ،

وليم : بل شيطان مدير للمكيدة ، مرائي من الطراز الاول . هذا ما كان يجب أن
أقوله . ماذا ورايك ؟

روبرت : وعندي يا مولاي خطة لمعالجة البرلمان ، ولكنني إلى الآن لم أجد ملصكا
كفوا قادرا على فهمها وتحقيقها ..

وليم : إذن فخرينى ..

روبرت : إنك ياسيدي آخر من يفهمها في الأرض .. ولكنني سألقبها تحت

أقدامك الملكية . والآن عليك باختيار وزرائك بكفائتهم ومقدرتهم
من غير نظر إلى أحزابهم ، فخر من هنا ومحافظ من هناك ، يكونون
جميعاً وزارة واحدة ، ومن مجموعهم يتكون مجلس شورى مولاي .

وليم : رأى جديد أنيت به ؟

روبرت : نصيحتي لك يا صاحب الجلالة أن تختار وزرائك في المستقبل من
حزب واحد ، وأن يكون هذا الحزب مكونا للأغلبية الساحقة من
نواب مجلس العموم .

وليم : إنك مجنون . من سمع بهذا من قبل ؟

روبرت : لكل شيء بداية ، يا سيدي . . ففكر في الأمر .

وليم : لقد فكرت ملياً . . وهل تذكر أنك نسيت .

روبرت : أي شيء يا صاحب الجلالة ؟

وليم : إن غلب أعضاء مجلس العموم من الأحرار .

روبرت : لم أنس ذلك يا سيدي ، وعليك في الحال التخلص من وزراء المحافظين ،
وتستبدل بهم وزراء أحراراً .

وليم : ولكن من المحافظين . هل جننت ؟

روبرت : قريب اليوم الذي يجمع المحافظون فيه شملهم ويكونون أغلبية ساحقة
ويهيئون حكومة الأحرار . وعندئذ تحمل البرلمان ، وعندما يعود
المحافظون من الانتخابات بأغلبية ساحقة تختار وزرائك من
المحافظين فقط .

وليم : ولكن ما سر هذا الارتباك ؟

إنك ستحدث هدوء ورزاقاً كأنك تتحدث بالمعقول . ماهذه الخرافات ؟

روبرت : إذا كان صاحب الجلالة يعمل بما أشير عليه به ، فإنني أراهنك :

وليم : ، بسرعة ، صه !

روبرت : عفواً يا مولاي . كان يجب أن أقول إنني على استعداد لنضحية شهرني

كمدبر مكائد ، وعلى كل سأتنازل عن هذه الشهرة ، إذا عمل جلاتكم بهذه النصيحة ، لأنه ما من عضو برلمان يتقدم للانتخاب مرة أخرى الا عن عقيدته أو مبادئه . ولكن السواد الاعظم من الناس لا يضعون مبداء موضع الجد ، بل يظنون أنه سيتقدم من أجل العدالة ، سواء للحرب أم للسلام ، وسيان لديه ذهب التاج إلى هانوفر أو إلى أى مكان آخر ، ولكن الهدف الحقيقى الذى سيتقدم من أجله هو : هل لحزبه أن يستمر فى الحكم ، أو يضييع نصف ممتلكاته على انتخاب آخر لينخرس مقعده إذا كانت خصمه أقوى منه وفى استطاعته أن يبعزق المال عن يمين وشمال .

وليم : لا تكن أبله يا روبرت . . فلا بد أن أكون عبد الاغلبية . ولا سبيل إلى الطريقة التى ينجح بها الناخب أو يفشل ، لأنه لا دخل لهذا كله بالجيش أو المال اللازمين ؟

روبرت : هناك طريق واحد مشروع للتصويت للحرب أو لآى شيء آخر ، ويجب أن نؤمل كثيراً عليه . لأن أغلبية الاحرار أو المحافظين لم يصوتوا للاستسلام إلى اعدائنا الطبيعيين الفرنسيين أو البابا !

وليم : ولكن البابا فى جانبى .

روبرت : ومن حسن الحظ أن قليلين منا يعرفون تلك الحقيقة سافرة . وهى أنه لا باباوية فى انجلترا .

وليم : إنك تحيك لى نفا . تريد أن تجعل الاغلبية فى مجلس العموم هى الحاكم الاصلى ، وتجعل الامبراطورية كدمية فى يده . وما دامت الاغلبية يصرفها عادة لإنسان خارق الذكاء مثلك ، ومدبر مكائد من الطراز الاول . فسرعان ما يتقلب الحال ، ويصبح هو الملك المطلق وأنا لاشيء على الاطلاق !

روبرت : لن أصبح ديكتاتورا ما دام جلاتكم حيا ، لأنك يا سيدى ان تصبح لاشيء ، ولكنى أعطيك هذا رأى الاخير ، فأنت ان فعلت ما أنصح به

فإن يخيفك أحد حتى كرومول نفسه أو ليبرن الذي سيضيع نصف حياته للحصول على مقعد في البرلمان، وعند ما يسعده الحظ ويحصل على المقعد المنشود، فثاني ما يفعله أن يسمي إلى دخول الوزارة، وعند ما تصل مطامعه إلى هذا الحد يصبح رئيس حزب، ويكتفى بهذا القدر. وسيظن الناس أنهم أحرار، لأن عندهم برلمانا، وسيجاربون أوربا بأسرها تحت سلطانك وأوامرك...

وليم : إنني لا أفهم، ولا أعتقد فيما تقول... واسكني ما دمت عاجزا عن السير إلى الأمام خطوة واحدة فسأجرب نصيحتك، فإذا فشلت فسأحصل على رأسك بكل وسيلة ممكنة.

روبرت : ستفعل بي خيراً يا سيدي وتريحني من هذا الرأس الذي ظل على كفتي المتعبين طويلاً..

[وتمر خمس وعشرون سنة ويموت وليم وساندرلاند في نفس العام ويظنان ثمانية عشر عاماً في كنفهما... فالملكة آن قد ماتت، وأصبح جورج الأول ملكاً على البلاد. ويظهر في معمعان السياسة تشارلس ابن ساندرلاند وعمره ٥٤ سنة عضو في حكومة الأحرار، وروبرت والبول وعمره ٤٤ سنة، ورغم أنه من أعضاء اليمين ولكنه يقود المعارضة في مشروع دلائحة الإشراف والأمراء... ويحدث أن يلتقي الاثنان في سانت جيمس وهما يتنزهان. ويعمد والبول إلى أن يحكي زميله بإشارة من يده، ولكن ساندرلاند يعمد إلى أن يدبجه معه في حديث طويل، وبعد قليل يدور الحديث الآتي :]

ساندرلاند: أود لو أحصل على تعضيدك لمشروع الجديد... فالحق أقول إنني أتوقع الهزيمة إذا عارضت المشروع. وأعجب لماذا لا تساعدني. إن المسألة ليست حزبية في شيء. فكلانا من الأحرار، وكلنا يهمل الأمر.

والبول : ولكن كيف توصلت إلى معرفة ذلك؟

ساندرلاند: حسناً، إن الأمر واضح غاية الوضوح، إننا الأحرار فوق رجال البرلمان فالحرية عندنا معناها التسلط والسيادة على البرلمان. إن للبرلمان قوتين

متضادتين تخافهما هما : الملك والرعاع الناخبون ، فأبى القديس الذي ورثت عنه عبقريته السياسية حمانا من طغيان الرعاع بنظام الاحزاب الذى خلقه خلقاً .. إنه هو الذى خلقك وجعلك فيما أنت عليه اليوم من نجاح كبير : أعظم منظم وقائد حزبى فى العالم . إنك مدين له بنجاحك . والبول : لقد استنفد ذلك مبلغاً ضخماً من المال .. فلكل رجل ثمنه ١١ ساندرا لاند : المهم هو ضمان المال لنا وليس للرعايع . ولكن ماذا عن النصف الآخر قوة الملك ؟

والبول : مسألة الملك قد صفت منذ سبعين سنة خلت .. ساندرا لاند : لا يا عزيزى والبول ، لا يمكنك أن تقضى على الملكية بحجة قلم أو بضربة فأس ، بل إن قوة الملك مجسمة فى الاشراف الذين يعينهم فى أى وقت شاء ، وكل ما يهمنا فى مشروع الاشراف القضاء على هذه القوة والحد منها .. أى أننا سنحد من سلطة الملك ، ولن يتسنى له بأية حال أن يضيف شريفاً واحداً إلى العدد الموجود .. بالطبع إنك توافق ؟ ١٢

والبول : أوافقك ١٢ مستحيل . إن أباك القديس ظل وراء الملك ولهم حتى أفهمه بأن نظام الاحزاب يعطيه السيطرة على البرلمان . وكانت النتيجة عكسية فاستخدم البرلمان سلطته فى مراقبة الملك . ولعل هذا يرضيك ، لأن معك سلطان الاغلبية ، وحتى إذا ما حصلت على هذه الاغلبية سخرت وهزأت بمشروع الاشراف ..

ساندرا لاند : ولكن لماذا تناوئنا فى هذا المشروع بالذات الذى فيه خبيرك وخيرنا ؟

والبول : إنك من الاشراف . أما أنا فنائب . إنك تريد سلطان اللوردات لتعظيم قوة الملك ، وأنا أريد أن يحفظ الملك سلطته وقوته على اللوردات والاشراف أمثالك . وعلى النواب أن يحافظوا على قوتهم هم أيضاً . فأنا على علم بلبعتك ، فعلى انجليزى وليس ألمانيا مثل عقلك ١١

ساندرلاند: إنك ذكي جداً . إذ تذكر أنك نائب وسوف تصبح مثلنا في يوم ما ...
والبول : بالطبع إذا حافظ الملك على قوته لجملي إرلا ... ومن يدري ! فقد يمنعه
مشروعك من هذه المنحة ...

ساندرلاند: لا تخف فهناك دائماً وظيفة خالية !
والبول : وحتى هذا لا أقبله ، لأنه قد يقضى على ...
ساندرلاند: إنك مستحيل .. عم صباحاً ...
[ويتركه ويسرع في سيره تاركاً والبول يتنزه وحده ...]





برنارد شو يتفكر في صورة لزوجته
ويلاحظ تمثال شكسبير على المدفأة